بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدا يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع سبيله وترسم خطاه .

وبعد فان النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء – من الأمور التى خلقت مع الانسان فى طبيعته وأصل جبلته . فهو مفطور عليه، مسوق – بما منح من قوة الادراك والفهم – إلى البحث فى حقائق الكون ؛ مدفوع – بما ذود به من غريزة حب الاستطلاع والتعليل لما يقع تحت حواسه من الأشياء – إلى تقصى أحوال السموات والأرض وما فيهما، ليقف على كنهها، ويدرك أسرار وجودها وحركاتها وسكانها ، وما إلى ذلك : من كيفها وكمها ...

يدل على شىء من هذا ماكان من أمر نبى الله وخليله إبراهيم (عليه السلام) : حينما ألهم فنظر فى ملكوت السموات والأرض؛ ليستدل على الصانع الحكيم ، وليلزم قومه الحجة ، وليكون من الموقنين . « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى؛ فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا، قال هذا ربى؛ فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربى ، هذا أكبر ؛ فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون » . وتلمس الاله الحق ؛ فلما عرفه قال : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

وقد دعا القرآن الكريم إلى النظر فيما خلق الله ؛ للاعتبار. وليس الاعتبار إلا نتيجة للادراك ، وفهم الحقائق ، وكشف الأسرار عن مكنونات ما فى السموات والأرض : من نجوم مسخرات بأمره ، وكواكب ميسرات لما خلقت من أجله ؛ ومن بقاع حرها لافح ، وأخرى بردها قارس ، وثالثة نسيمها عليل... وما يتبع ذلك من أحوال العمران فيها ؛ على اختلاف فى خواصها ، وتباين فى مزاياها .

فكر الانسان منذ خلق فى هذه الأمور. وكانت آراؤه فى الكون ونشوئه تبدو خرافية أو قريبة إلى الخرافة . ولا غرو ؛ فقد كانت نتيجة دائرة من المعرفة ضيقة النطاق ، لا تعتمد إلا على وحى الفطرة الأولى. ولما كانت الفطر تختلف باختلاف البيئات ؛ كان لابد من أن تختلف درجات تفكيرها قوة وضعفا ، وتتباين ثمرات مجهودها جودة ورداءة. ولذلك كان وصف الأولين للكون وما فيه مختلفا ، وبيانهم لحقائقه متباينا . وهم جميعا ـ مع ذلك ـ قد أخطأوا المرمى ، ولم يصيبوا الغرض إلا من طرف يسير . ولكن فضلهم لا ينكر ؛ فهم الذين سبقوا إلى هذا البحث فأنشأوه وأبدعوه ؛ حتى جاء من بعدهم جيل ترسم خطاهم ، ونسج على منوالهم . وفى هدى ما كان إذ ذاك من اتساع دوائر العلم ؛ خطا خطوات : كانت موفقة أحيانا ، وضالة أخرى . ثم جاء جيل ثان فخطا خطى واسعة موفقة ؛ على ضوء ما استحدث من العلوم والفنون ، وما ابتكر من الأدوات والآلات ؛ حتى وصل إلى الغرض المنشود ، وتبين الحق حقا والباطل باطلا .

ومن ذلك ترى أن الحقيقة التي أصبحت الآن لا مراء فيها ؛ كانت وليدة الفرض الخيالى ، والرأى الخرافى .

فاذا نحن دونا فى هذا الكتاب ما كان من فرض خيالى أو رأى خرافى ؛ فلم نعد أن بينا صفحة من تاريخ العقل الانسانى ، وكيف كان يتجه فى البيئات المختلفة ؛ رجاء التعليل لما صارت إليه هذه البيئات الآن من رقى أو انحطاط : فى الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وإذا نحن ترجمنا لعدد من علماء الاسلام ومؤرخيه : كالمسعودى ، وابن بطوطة ؛ فما ذلك إلا لأننا رأينا أبناء العصر الحاضر من الشرقيين يعرفون الشىء الكثير من تاريخ حياة علماء الملل الأخرى ومؤرخيها : مثل ماطبرون ، وماركوبولو — فى حين أنهم يكادون يجهلون أولئك ؛ مع ما كان لهم من أثر يذكر فيشكر فى إنهاض علمى الجغرافية والفلك فى القرون الوسطى ؛ حتى كانوا للمحدثين من علماء العصر الحاضر بمثابة نموذج ، لا يزالون ينسجون على منوالهم إلى اليوم .

وإذا بينا أحوال التجارة فى العصور الوسطى ، ورسمنا مسالكها ومنافذها ، وأفردنا مصر وتجارتها بكلمة خاصة ؛ فما ذاك إلا لأن المبادلات التجارية بين أمم الأرض من أقوى العوامل فى تبادل الآراء أيضا .

وإذا نحن ختمنا موضوعنا بتفصيل أحوا المناخ فى بقاع الأرض المختلفة ؛ فذاك لارتباط المبادلات التجارية بها ارتباطا وثيقا ، ولما لها من أثر فى أعمال الناس وآرائهم ومدى تفكيرهم .

ولقد وضعنا كتابنا هذا لمن يهمهم أمر العلوم الكونية : فى نشوئها ، وتدرجها فى النمو ، وما كان من أمر أبطالها فى النهوض بها إلى أن وصلت إلى مستواها الحالى . ولا ندعى أننا بلغنا درجة الكمال فى بحوثنا، بل نطلب إلى إخواننا الأساتذة الذين سيطلعون على هذا الكتاب ، أن يتفضلوا بموافاتنا بما يعن لهم من الآراء . ونحن على أتم الاستعداد لقبول ما يكون فيها أدل على المراد وأدنى إلى إصابة الغرض المقصود ؛ فان كل ما نبغى هو أن نصل إلى إحقاق الحق وتوخى الصواب .

« وبعد، فاننا لا نجد بدا من التنويه بتلميذنا عبد السلام فتح الله النحاس افندى ، الذى ساعد مساعدة مجدية: فى العناية بتصحيح نماذج طبع هذا الكتاب ، واستعمال علامات الترقيم ، وضبط ما يحتاج إلى الضبط ، وتحرى اللغة الصحيحة فى كثير من المفردات ؛ فله منا على ذلك كله مزيد الشكر ، وعظيم الثناء » .

والله وحده الموفق والمعين ، وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

دار العلوم فى رمضان سنة ١٣٥٣ هـ (يناير سنة ١٩٣٥ م)

المؤلفان

محمد فخر الدين عبد الفتاح الزيادى

مقدمة

إنا لا نجاوز حد الصواب إذا قررنا أن الجغرافية من أقدم العلوم التى وعتها الأفهام . ولا نغالى إذا قلنا إن هذا العلم شامل جامع متصل بسائر العلوم . يرى الباحث فيه لذة الانتقال من علم إلى علم ، وتطبيق تلك العلوم على الظواهر الطبيعية والمشاهدات ، ثم إعمال الفكر فى البحث والاستقصاء والتعليل . ولسنا نعدو الحقيقة إذا رددنا مع « استرابون » القول بأن الجغرافيين من أوفر الناس حكمة ، وأبعدهم عن خيالات الشعراء وأوهام السفهاء .

لهذا نرى أن كل من تصدى من الجغرافيين للكشف عن أقدم ما تخيله القدامى فى الدنيا ، وحاول أن يقف على كيفية تدرج هذا العلم فى معارج الرقى — اعترضته الصعاب التى تضل فى سبيل تذليلها العقول ؛ لعدم وجود مراجع يستند إليها ، ويطمئن لها ؛ اللهم إلا أساطير لم تثبت حقيقتها ، وأسانيد لا يوثق بها . وهى إن دلت على شىء ، فانها لا تدل إلا على مقدار اندفاع الأقدمين فى تيار الخيال ؛ ومن أجل ذلك كانت أحكام هذا الموضوع مؤسسة على الظن والتخمين ، لا على الاعتقاد واليقين .

غير أنه لا ينبغى أن يتطرق إلينا الشك مطلقا ، فى أن الانسان كان فى جاهليته الأولى كالعجماوات : يهيم على وجهه فى الفيافى والفلوات ، ويسعى ليومه دون أن يفكر فى غده ، وليس له من قانون غير قانون الأشد الأقوى . كان ذكاؤه أوليا محضا ، ومعرفته

للطبيعة وظواهرها مرتكزة على أحط ما عرف من ارتباط الافكار . ولكى يخرج من وحشيته وخشونته — كد وكدح فى سبيل استجماع أصول ترقيه ، وناضل أعداءه طويلا ؛ فكان يكتب له النصر حينا ، ويصدمه الفشل أحيانا . وقد اهتدى على طول الأيام إلى تسخير قوى الطبيعة فى مصالحه المختلفة ، وتغلب على القوى التى اكتنفته بعد طول مراس وجهاد . فهل نظن أن ذاك الانسان كان يفكر — أثناء كفاحه — فيما يحيط به من مظاهر الكون ؟ وهل كان يدرى شيئا عن الأراضى التى تحيط بتلك البقعة الضيقة التى استوطنها ؟ وهل أدرك أن هناك بقاعا واسعة من الأرض تمتد من بقعته إلى جميع الجهات ، وبخاصة حينما رأى البحر المحيط لأول مرة ، وخيل إليه أنه يمتد إلى أن يلاقى السماء ؟

نعم نظن أن الناس فى العصور الخالية كانوا لا يحيطون بالأرض علما ، بل كان كل من يؤم قطعة من الأرض يظن أنها الدنيا برمتها ، وكان لا يفارقها إلى غيرها مادام واجدا فيها موارد رزقه — وكذلك كان الكلدان الأولون — فان كانت بقعتهم جزيرة ، حسبوا أن البحر الذى حولها ليس وراءه إلا أطراف السماء ، ولا تزال بعض أمم الأرض الآن على هذه الفطرة الأولى ، كأهل « كارولينا » من جزائر المحيط الهادى ؛ وإن كانت سهلا أو نجدا ، ظنوا الأرض كلها على هذا النحو ، كأهل إفريقية الوسطى من الزنوج والمتوحشين ومن على شاكلتهم .

أجل ، لقد كانت الدنيا فى نظر الانسان الأول مؤلفة من الغابات التى يجوس خلالها للقنص ، ومن الأنهار التى يسلكها بزوارقه العتيقة ويعالج فيها صيد الحيتان ليقتات منها ، ومن الروابى التي يهتليها ليهتدى بها إلى كوخه أو كهفه الذي يأوى إليه .

إلا أن هذا الأنسان الأول قد أودع بذور العظمة ؛ فتآخى وتعاون ، وكون الجماعات ، وعمر البقاع واستنبتها ؛ فعز عليه فراقها ، وبدأ يحدد وطنه ، وربما شن الغارة على جيرانه يسلبهم أرضهم وموارد رزقهم ، مندفعا إلى ذلك بما ركب فى غريزته من الطمع والجشع . ويظن أن طوائف الصيادين هم أول من جعل للأقاليم حدودا ، ثم زادت هذه الحدود ثباتا بالغزو والفتح ، وصار لبعض الأقاليم سلطان على البعض الآخر ، وكثرت مطالب الحياة فظهرت الحاجة إلى المبادلة ، وهى التجارة التى قامت على أساس اختلاف الغلات ؛ فكانت البعثات التجارية فى الماضى عاملا عظيم الخطوة فى حياة الأقدمين . وكان يقوم بها طبقة خاصة من الناس يجوبون الآفاق ، ويتصلون بالشعوب الأخرى ، ثم يؤوبون إلى بلادهم حاملين فى جعبتهم أخبارا وأقاصيص عن البلاد التي جاسوا خلالها ، والطرق التى سلكوها ، والعجائب التى شاهدوها ، والمصاعب التى كانت تعترضهم فى سبيلهم . ورغبة فى التغني بشجاعتهم ، والتمدح باقدامهم — كان هؤلاء الجوابون يحيطون أخبارهم هذه بأنواع المبالغات ؛ كزعمهم أنهم رأوا فى أسفارهم أغوالا وأناسا طوالا نازلوهم وتغلبوا عليهم ، وشاهدوا

ممالك ومناطق ملتهبة لم يستطيعوا اجتيازهـا . وقد زعم بعض أنه وصل إلى قبائل لا يعرف لغتهم ، ونسب إلى البلاد التى رآها أسمـاء اتفاقية . وربما كان من البواعث التى دعتهم إلى هذه المبالغات ، رغبتهم فى أن يستأثروا بمنافع البلاد التي يقصون قصصها ؛ فلا يشاركهم فيها أحد .

وقد تـكون قصة « الأرغونتيين » وهم الأبطال الذين سافروا مع « ياسون » فى السفينة « أرغـو » للبحث عن الساخ الذهبى — قصة بعثة بحرية حقيقية على جانب كبير من الأهمية ؛ لاتصالها بحياة الأبطال وأنصاف الآلهة عند قدماء اليونان .

وقد ساعد هؤلاء القصاصين على التمادى فى مبالغاتهم ، والاندفاع فى تخيلاتهم — أنهم صادفوا آذانا ساذجة ، وعقولا لا تمحص حديثا .

ومن هذا تدرك أن الجغرافية مثل التاريخ ـ كانت ميـــــدانا مشتركا للخرافات والأقاويل ؛ إلا أنها من الخرافات التى لا تستغنى عنها المدنية ، بل هى فى الواقع أساس وصف الدنيا أو « علم الجغرافية » . فان كان هذا العلم قد نشأ من أصول ضئيلة خرافيـة ، وبقى القرون الطوال رهن التحول البطىء ـ فقد استوى فى النهاية علما جليلا ، بعد أن ماز العلمـــــاء غث الأقاصيص من سمينها ، وهذبوها على الوجه الأكمل ، واستخلصوا جوهر الحقيقية من رغام الخرافة .

والخلاصة أن الدنيـا فى نظر القدماء كانت ضيقة ، لا تعـدو دائرة الأفق إلا قليلا .

إلا أنه بعد انتهاء ذلك العهد المظلم ، وارتقاء الانسان فى علمه

وبحثه — كل لكل قبيل من الناس رأى فى الدنيا . ولنبدأ بآراء المصريين القدماء، باعتبارأنهم هم المؤسسون الأولون لصرح الحضارة فى العالم .

رأى المصريين الأقدمين فى الكون

ومعارفهم الجغرافية

تمهيد . من أراد أن يقف على رأى المصريين فى الكون، فليول وجهه شطر ديانتهم يدرسها ؛ فهى مصدر مدنيتهم وثقافتهم، وعلومهم وفنونهم، وآثارهم وسائر مرافق حياتهم . والمصريون الأقدمون كانوا من أكثر الناس تعبدا وتدينا . ومن نظر فى معابدهم ومقابرهم، وتأمل فيما حوته من النقوش والصور، وقرأ « كتاب الموتى » — أدرك مقدار عنايتهم بتقديس آلهتهم، وتكريم موتاهم، واستعدادهم للحياة الآخرة .

تغلغل الدين فى شئون حياتهم ؛ حتى كان كل شىء مطبوعاً بطابع دينى . وقد تمتع رجال الدين من كهنة وغيرهم بسلطان لاحد له، وسيطروا على الحركة الفكرية يسيرونها أنى شاءوا ؛ ولكنهم ما حادوا بها عن الصبغة الدينية البحتة . أما نفوذهم السياسى فقد كان عظيما، يزرى بذلك النفوذ الذى تمتع به رجال « الاكليروس » فى أوربا بعد ذلك بقرون عدة .

إلى هؤلاء الكهنة يدين العالم بما يعرفه عن المصريين من ثقافة